وزارة التعليم والبحث العالي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين
مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

الملتقى الوطني: التجديد في التفاسير المعاصرة – عرض ونقد.

أستاذ محاضر ب.
البريد الإلكتروني: ostadafatima97@gmail.com

عنوان المداخلة: ملامح التجديد في علم القراءات من خلال تفسير ابن عاشور.

ملخص البحث:

يعد التجديد بكل أشكاله وصوره من ملامح العصر الحديث وقد مس هذا الأخير كل العلوم والمعارف وخاصة علوم القرآن والتفسير قد تصدر لذلك من العلماء في العصر الحديث المفسر الإمام الطاهر ابن عاشور الذي كانت له إسهامات كبيرة من خلال تفسيره التحرير والتنوير وخصوصا في مجال القراءات القرآنية التي قام بعرضها وتوجيهها على المعاني المختلفة للآيات، كما كانت له نظرة فاحصة في مناقشة الآراء وتحليلها مما زاد تفسيره وعمقا وثراءً.

Abstract:

The renewal in all its forms is one of the features of the modern era, and the latter has touched all sciences and knowledge, especially the sciences of the Quran and interpretation. One of the scholars in the modern era issued by the interpreter Imam Al-Tahir Ibn Ashour, who had great contributions through his interpretation of Attahrire wattanwire, especially in The field of Quranic readings that he presented and guided on the different meaning of the verses. He also had a keen eye for discussing and analyzing opinions, which increased his interpretation in depth and richness.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله وبعد:

-إنّ كتاب الله عزوجل هو أعظم ما شرفت به الأمة الإسلامية عن باقي الأمم فهو المعجزة الخالدة التي أنارت قلوب العارفين وأبصار المهتدين من العلماء العاملين الذين بحثوا في أسرار كتابه الكريم وغاصوا في أعماقه لاستخراج الدرر واللآلئ فكان المفسرون من جملة أولئك الأعلام الأفذاذ الذين سخروا كل طاقاتهم في سبيل ذلك في مختلف العصور ويعتبر علم القراءات القرآنية من بين أهم المصادر التي استعان بها المفسرون في بيانهم لمعاني النص القرآني ولذا قلما نجد تفسيرا يخلوا منها، ومن بين المفسرين المعاصرين الذين كان لهم اهتمام بارز بهذا العلم الإمام "محمد الطاهر بن عاشور"، الذي ضمّن تفسيره الكثير من القراءات القرآنية، وكانت له نظرة تجديدية في التعامل معها سواء من خلال مقدمته التفسرية السادسة التي خصصها لعلم القراءات أو من خلال تفسيره الذي يعد نموذجا تطبيقيا لكل آرائه ومناقشاته العلمية، وقد لاحظت من خلال ذلك أن للإمام شخصية متميزة في عرض المسائل المتعلقة بالقراءات وفي التأصيل لعلاقة القراءات بالتفسير، وهو الأمر الذي لم ألمسه في الكثير من كتب التفسير التي تناولت القراءات القرآنية، وهذا يبرز أهمية تفسيره وخصوصا في مجال القراءات القرآنية وتوجيهها، فأردت من خلال هذا البحث الوصول إلى ما يلي:

-بيان أهمية القراءات في مجال التفسير لما لها من أثر كبير في توسيع دلالات النص القرآني وإبراز بلاغته وإعجازه.

-التعرف على اسهامات عالم من علماء التفسير في عصرنا الحاضر في مجال القراءات القرآنية وكيف استفاد منها في خدمة التفسير.

-بيان موقف الإمام الطاهر بن عاشور من تلك المسائل الشائكة المتعلقة بعلم القراءات كقضية الترجيح بين القراءات المتواترة ونقدها.

-إبراز دور الإمام محمد الطاهر بن عاشور في التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية.

وقد ضمّنت هذه الأهداف العناصر التالية من البحث:

أولا: أثر القراءات القرآنية في التفسير عند الامام ابن عاشور.

ثانيا: التوجيه البلاغي للقراءات عند الامام ابن عاشور.

ثالثا: الترجيح بين القراءات المتواترة عند الامام ابن عاشور.

رباعا: موقف الامام ابن عاشور من نقد القراءات المتواترة.

وفي الأخير خلصت إلى خطة ضمنتها أهم النتائج.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد.

1-مدخل تمهيدي:

أ-التعريف بالإمام محمد الطاهر بن عاشور:

هو الشيخ الإمام محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور وأمه فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن محمد بن محمد بوعتور.

وأسرة آل عاشور التي ينتمي إليها الإمام أسرة أندلسية الأصل انتقلت إلى مدينة سلا بالمغرب واستقرت في مدينة تونس، واشتهرت أسرته بالعلم والفضل، وقد كان جدّه من كبار علماء عصره.

ولد الإمام محمد الطاهر بن عاشور بالمرسى في تونس عام (1226هـ-1879م)، بدأ في تعلم القرآن في سن السادسة من عمره، ولما بلغ الشيخ أربعة عشر عاما التحق بجامع الزيتونة، وأخذ العلم عن شيوخه إلى أن صار أستاذا فيه.

عيّن الإمام سنة 1932 شيخ الإسلام المالكي، وعيّن كذلك شيخ الجامع الأعظم وفروعه، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة.

من أبرز مصنفات الإمام:

-كتابة في التفسير "التحرير والتنوير".

- مقاصد الشريعة الإسلامية.

-أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

- الوقف وآثاره في الإسلام.

- أصول الإنشاء والخطابة.

-موجز البلاغة وغيرها من الكتب والمؤلفات القيمة التي تشهد بمكانة الإمام العالية وشخصيته البارزة والمتمكنة من مختلف العلوم الشرعية والأدب.

وتوفي الإمام محمد الطاهر بن عاشور يوم الأحد 13 رجب 1393هـ الموافق لـ: 12 سبتمبر 1973م عن عمر يقارب 97 عاما فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله خيرا عن الإسلام والمسلمين [1].

ب-التعريف بعلم القراءات القرآنية:

هو علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة [2].

فمجال علم القراءات هو البحث في اختلاف أداء حروف القرآن وهو ما يدخل في مصطلح الأصول والخلاف فيها بين القراءات ينضوي تحت قاعدة تضبطه وأصل يرجع إليه كقاعدة المد أو الهمز.

ويدخل في علم القراءات الاختلاف في حروف القراءات وحركاته مما يدخل في بنية اللفظ وهو ما يسمى بفرش الحروف[3]، مع نسبة كل ذلك لمن قرأ به من القراء سواء كانوا أصحاب القراءات العشرة المتواترة[4]، أو ما زاد عنهم من أصحاب القراءات الشاذة[5]. وبذلك يمكن تقسيم القراءات إلى قسمين:

أولاهما: القراءات المتواترة.

---

[1] _ ينظر: -خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، (دار العلم للملايين، 2002م) (593/1)، -محمد الحبيب بن الخوجة، شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور (ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2004م)، (153/1).

-إياد خالد الطباع، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، (دار القلم: دمشق، 2005م)، ص 25.

[2] _ محمد بن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ت: زكريا عميرات، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999، ص 09.

[3] _ وفرش الحروف هو ما لا يرجع إلى أصل مضطرد ولا قانون كلي وهو على وجهين اختلاف في القراءة باختلاف المعنى وباتفاق المعنى، ينظر ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، (21/1).

[4] _ وهم: الإمام نافع، وابن كثير أبو عمرو البصري، ابن عامر الشامي، عاصم، حمزة الكسائي، أبو جعفر، يعقوب، خلف ينظر ابن الجزري، النشر، (45/1).

[5] _ وبعض العلماء يجعل منها قراءة ابن محيصن واليزيدي والحسن البصري، والأعمش.-ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (54/1)

وهي كل قراءة نقلها جمع على جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهى السند الذي ثبت به القراءة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

ويدخل في مسمى القراءة المتواترة القراءة الصحيحة وهي التي صحّ سندها بأن رواها العدل الضابط على مثله ووافقت أحد أوجه اللغة العربية، ووافقت أحد المصاحف العثمانية فهي أيضا قراءة صحيحة مقبولة [2].

وثانيهما: القراءات الشاذة

وهي القراءة التي لم يثبت تواترها أو صحة سندها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدخل في ذلك القراءات التي خالفت ركنا من أركان القراءة الصحيحة. كموافقة رسم المصحف العثماني أو موافقة أحد أوجه اللغة العربية [3].

2- ملامح التجديد في علم القراءات من خلال تفسير الإمام محمد الطاهر بن عاشور:

يعتبر الإمام محمد الطاهر بن عاشور من بين العلماء الذين كانت لهم اجتهادات وآراء تجديدية في التفسير عموما وقد صرح بذلك فقال: «فجعلت حقا عليّ أن أبدي في هذا التفسير للقرآن نكتا لم أر من سبقني إليها وأن أقف كوقف الحكم بين طوائف المسلمين تارة لها وتارة عليها فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاذ»[4].

فأوجب الإمام هنا على نفسه الإجتهاد في تفسير كتاب الله تعالى، ويكون ذلك بعدم الانسياق لكل ما قيل في كتب التفسير بل ينبغي عليه أن يمحص ويدقق في الآراء حتى يخرج برأي جديد يخدم غرضه التفسيري المتمثل في بيان فيض القرآن وكنوزه التي لا تنفذ.

وقد ظهر هذا الغرض في عنوان تفسيره الذي اختاره وهو: "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد".

---

[1] _ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (بيروت: المكتبة الثقافية 1973م) (102/1).

[2] _ الزرقاني، مناهل العرفان(386/1) .

[3] _ ابن الجزري، النشر، (14/1-16).

[4] _ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)(6/1-7).

وقد تبين لي هذا الملمح التجديدي من خلال حديثه عن علم القراءات وذلك في مقدمته السادسة التي احتوت أهم مسائل علم القراءات من ناحية التعريف به كعلم وبصلته بعلم التفسير وكذا تناوله لبعض المسائل المتعلقة بتعامل المفسرين مع القراءات المتواترة من حيث الترجيح أو القبول مبديا في كل ذلك نظرته الثاقبة وآراءه السديدة في توضيح المسائل وتحليلها ونقد ما يستوجب النقد بأسلوب علمي هادئ وفيما يلي عرض لهذه المسائل.

أولا: أثر القراءات القرآنية في التفسير:

إن اعتماد المفسرين على القراءات القرآنية في تفاسيرهم يظهر تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين علمي القراءات والتفسير ولكن هل كل القرارات لها أثر في التفسير؟

لقد أجاب الإمام محمد الطاهر بن عاشور عن هذا التساؤل في مقدمته حيث بيّن أن للقراءتين حالتين:

إحداهما: لا تعلق لها بالتفسير بأي حال

والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة.

أمّا الحالة الأولى فهي اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والإمالات والتخفيف والتسهيل وإلى غير ذلك مثل "عذابي"[1] بسكون الياء وبفتحها، وفي تعدد وجوه الإعراب مثل "حتى يقول الرسول" بفتح اللام في "يقول" [2]وضمها ومزية القراءات من هذه الجهة عائدة إلى أنها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرها وهو تحديد كيفيات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات نطق ذلك عن قراء القرآن من الصحابة بالأسانيد الصحيحة، وهنا غرض مهم جدّا لكنه لا علاقة له بالتفسير لعدم تأثيره في اختلاف المعاني وأما الحالة الثانية: فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل "مالك يوم الدين" و"ملك يوم الدين" وغيرها[3]، وكذلك

---

[1] _ قرأ نافع وأبو جعفر "عاذبي أصيب" بالفتح وقرأ الباقون بالإسكان ينظر: ابن الجزري، النشر، ت: علي محمد الضباع، دار الفكر للطباعة والنشر، (169/2).

[2] _ قرأ نافع "حتى يقول" رفعا وقرأ الباقون حتى يقول نصبا، ينظر: ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، ت: جمال الدين محمد شرف، ط1، مصر: دار الصحابة للتراث، 1428هـ-2007م، (ص104)

[3] _ قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره "مالك" وقرأ الباقون "ملك" ينظر: ابن الجزري، النشر (27/1).

اختلاف الحركات الذي يختلف معه المعنى، مثل قراءة "يصدون" [1]وبضم الصاد وبكسرها فهي من هذه الجهة لها تعلق بالتفسير [2].

فقد حدّد الإمام هنا علاقة القراءات بالتفسير وأنه ليس كل اختلاف بين قراءة وأخرى يؤثر في المعنى، فمجال التفسير هو الاختلاف بين القراءات الذي يؤدي إلى اختلاف معاني الآيات، وهو مقصد مهم للمفسر إذ به تكثر معاني الآيات وتتضح دلالاتها وتترجّح إحدى محتملاتها، وهذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «أنّ ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى أو يشير معنى غيره ولأنّ اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني الآية الواحدة» [3].

ولذلك كان على المفسر أن يبين اختلاف معاني القراءات إذا كانت تندرج في الحالة الثانية التي ذكرها الإمام ولم يكن حمل أحد القراءتين على الأخرى متعينا ولا مرجّحا وفي ذلك يقوم الإمام: «وأنا أرى أن على المفسر أن يبين اختلاف القراءات المتواترة لأن في اختلافها توفيرا لمعاني الآية غالبا فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن» [4].

وهذا الذي ذكره الإمام كان في معرض ردّه على كلام أبي علي الفارسي[5]، في كتابه الحجة الذي غالبا ما يختار حمل معنى إحدى القراءتين على معنى الأخرى.

فنجد الإمام ابن عاشور هنا يؤسس لعلاقة منهجية تربط بين علمي القراءات والتفسير ويبيّن ما الذي يحتاجه المفسر من القراءات المتواترة وحتى القراءات الشاذة فقد ذكر الإمام أنها لا تخلوا من فائدة لغوية وتفسيرية وحجّتها لا من حيث الرواية ولكن من حيث أن قارئها ما قرأ بها إلا لاستعمال عربي صحيح [6].

وهذا الذي أصّل له الإمام في علاقة القراءات بالتفسير لم أجده في أغلب مقدمات التفسير التي اطلعت عليها، حيث اقتصر الحديث في تلك المقدمات على ذكر مسألة الأحرف السبعة وكذا جمع

---

[1] _ قرأ نافع وابن عامر والكسائي "يصدون" بضم الصادر، وقرأ الباقون لكسر الصاد، ينظر: ابن مجاهد، كتاب السبعة، (ص409).

[2] _ ابن عاشور، التحرير والتنوير (55/1).

[3] _ ابن عاشور، المصدر السابق، (55/1)

[4] _ ابن عاشور، المصدر نفسه (56/1).

[5] _ ابن عاشور، المصدر نفسه (56/1).

[6] _ ابن عاشور، المصدر السابق(25/1).

القرآن وترتيبه وإعجازه وغير ذلك[1].

وهدا يدل على مدى دقة الإمام وعمق تفكيره في التأصيل للمسائل وتحليلها وسبر أغوارها.

ثانيا: التوجيه البلاغي للقراءات عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور

يعتبر التفسير البلاغي للقرآن من أهم مقومات وأسس التفسير عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور وقد صرّح بذلك في مقدمته فقال: «ولكن فنا من فنون القرآن لا تخلوا عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصّه أحد من المفسرين بكتاب كما خصّوا الأفانين الأخرى من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في أي من أي القرآن كلّما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر...وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال» [2].

ولقد حاول الإمام إبراز وجوه الإعجاز ونكت البلاغة من خلال توجيهه للقراءات القرآنية المختلفة حيث يرى أن هذا الاختلاف بين القراءات هو مظهر من مظاهر بلاغة القرآن حيث يقول في ذلك «فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزءا عن آيتين فأكثر، وهذا نظير التضمين في استعمال العرب ونظير التورية والتوجيه في البديع [3]ونظير مستتبعات التراكيب في علم المعاني وهو من زيادة ملائمة بلاغة القرآن...» [4].

فمن فوائد اختلاف القراءات ما في ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وغاية الاختصار وكمال الإيجاز إذ كل قراءة بمنزلة آية إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدها لم يخف ما كان ذلك من التطويل[5].

ولذلك فقد سعى الإمام محمد الطاهر بن عاشور إلى إبراز الإعجاز البلاغي للقراءات المختلفة

---

[1] _ ينظر: مقدمة تفسير ، الطبري، الزمخشري، ابن عطية، القرطبي، الرازي، أبو حيان، ابن جزي، الألوسي، القاسمي.

[2] _ ابن عاشور، المصدر السابق، (8/1).

[3] _ التورية و(التوجيه): التورية هي من فنون البديع المعنوي، عرّفها القزويني بقوله: «أن يكون للفظ معنيان قريب وبعيد ويراد بها البعيد، ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ت: عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، 1989م، ص 353.

[4] _ ابن عاشور، المصدر السابق، (55/1).

[5] _ ابن الجزري، النشر (52/1).

أثناء توجيهه لها.

فقد جاء في توجيهه لقراءة أبي عمرو البصري "إنّ هذين" في قوله تعالى: ﴿ **إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾ [طه64] قوله: «ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متحدة المقصود»[1].

ومن بين الأساليب البلاغية التي وجه الإمام ابن عاشور من خلالها القراءات ما يلي:

أ-أسلوب الالتفات: وهو من الأساليب البلاغية التي يراد بها نقل الكلام من أسلوب إلى آخر والمشهور منه ما كان من المتكلم إلى المخاطب أو إلى الغائب[2] .

وقد ورد هذا الأسلوب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأعراف:169].

قال الإمام: «....وقد قرئ بتاء الخطاب[3]، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة وهي قراءة نافع وابن عامر وابن ذكوان وحفص عن عاصم ويعقوب وأبي جعفر، وقرأ البقية بياء الغيبة، فيكون توبيخهم تعريضيا»[4].

فهنا ابن عاشور يذكر طريقة الالتفات وهي من الصيغ البلاغية ويبيّن سرها وغرضها في هذه الآية وهو التوبيخ والتقريع على عدم التفكر والتعقل.

ومن المفسرين الذي نبهوا إلى أسلوب الالتفات في هذه الآية الإمام أبو حيان إلاّ أنه لم يبيّن غرض هذا الالتفات كما فعل ابن عاشور حيث يقول: «وقرأ الجمهور بالخطاب على طريقة الالتفات إليهم، أو على طريق الخطاب هذه الأمة كأنه قيل: «أفلا تعقلون حال هؤلاء وما هم عليه من سوء العمل ويتعجبون من تجارئهم على ذلك»[5] .

---

[1] _ ابن عاشور، المصدر السابق(254/16).

[2] _ السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ت: محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي، ص (378).

[3] _ قراء نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب، أفلا تعقلون وقرأ الباقون "أفلا تعقلون"، ينظر: ابن الجزري، النشر(273/2).

[4] _ ابن عاشور، المصدر السابق (163/9).

[5] _ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ت: عبد الرزاق المهري، ط1، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002م)، (415/4).

ب-أسلوب المبالغة:

المبالغة هي إدّعاء بلوغ وصف في شدته أو ضعفه مبلغا يبعد أو يستحيل وقوعه[1]، ومن أغراض المبالغة تأكيد المعنى وتقريره في النفس[2] والمبالغة من أكثر الأساليب البلاغية التي تضمنتها القراءات القرآنية وخصوصا ما تعلّق الأمر بصيغ المبالغة.

ومن بين هذه الصيغ التي عرض لها الإمام ابن عاشور ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 112] حيث يقول الإمام: «قرأ الجمهور "بكل ساحر" وقرأ حمزة والكسائي وخلف "بكل سحّار" على المبالغة في معرفة السحر، فيكون وصف عليم تأكيدا لمعنى المبالغة، لأنّ وصف "عليم" الذي هو من أمثلة المبالغة للدلالة على قوّة المعرفة بالسحر وحذف متعلق "عليم" لأنه صار بمنزلة أفعال السجايا، والمقام يدل على أنّ المراد قوة علم السحر»[3].

وقد بيّن الإمام هنا معنى المبالغة في صيغة "سحّار" وربط ذلك سياق الآية الذي يؤكد معنى قراءة "سحّار".

وعندما رجعت إلى كتب التفسير[4]، في هذه الآية لم أجد من وضّح بدقة صيغة المبالغة في "سحّار" كما فعل ابن عاشور إذ حاول الإمام بيان معنى قراءة "سحّار" التي تنسجم مع لفظة "عليم" وكلا اللفظين يؤدّيان المعنى المقصود من الآية وهو أنّ فرعون أتى بأمهر وأعلم السحرة.

ثالثا: الترجيح بين القراءات المتواترة عند الإمام ابن عاشور

ويقصد بالترجيح بين القراءات هو ميل المفسر لإحدى القراءات وتفضيلها على الأخرى استنادا إلى قواعد إجتهادية وذلك من دون تضعيف القراءة المرجوحة وإلا كان نقدا للقراءة لا ترجيحا لها.

وأغلب المفسرين الذين عرضوا للقراءات في تفاسيرهم قاموا بالترجيح بينها من دون أن يشيروا إلى

---

(1) _ ابن عاشور، موجز البلاغة (الطبعة التونسية، 1932م)، ص 42.

(2) _ ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوف إلى علوم القرآن وعلم البيان، ط2، (لبنان، دار الكتب العلمية، 1408هـ-1988م)، ص 294.

(3) _ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (45/9).

(4) _ ينظر: تفسير ابن عطية (438/2)، القرطبي (257/7)، الرازي (208/14)، أبو حيان (438/2).

ذلك في مقدماتهم التفسيرية وقد ذكر الإمام ابن عاشور هذه المسألة في مقدمته بالتفصيل وبيّن علة ذلك الترجيح وموجباته عند المفسرين فقال: «ثمّ إنّ القراءات العشر الصحيحة المتواترة، قد تتفاوت بما يشتمل عليه بعضها من خصوصيات البلاغة أو الفصاحة أو كثرة المعاني أو الشهرة، وهو تمايز متقارب وقل أن يكسب إحدى القراءات في تلك الآية رجحانا، على أن كثيرا من العلماء كان لا يرى مانعا من ترجيح قراءة على غيرها ومن هؤلاء الإمام محمد بن جرير الطبري والعلامة الزمخشري وفي أكثر ما رجّح به نظر سنذكره في مواضعه» [1].وبالرغم من هذه الأسباب الموجبة للترجيح بين القراءات كتفاوت القراءات في الفصاحة أو كثرة المعاني فهو لا يرى داعيا لذلك الترجيح وقد بيّن الإمام حكم الترجيح بين القراءات عند الإمام ابن رشد وذلك عندما سئل عن ما يقع في كتب المفسرين والمعربين من تحسين بعض القراءات واختيارها على بعض لكونها أظهر من جهة الإعراب وأصح في النقل وأيسر في اللفظ فلم ينكر ذلك كرواية ورش التي اختارها الشيوخ المتقدمون» [2].

وهذا يدل على جواز الترجيح بين القراءات عند الإمام ابن عاشور من الناحية النظرية أما من الناحية التطبيقية فيرى الإمام أن أكثر المواضع التي رجّح فيها المفسرون بين القراءات فيها نظر وتستحق المراجعة والنقد.

وأشار الإمام أيضا إلى أثر الترجيح بين القراءات على القراءة المرجوحة وهل يؤدي ذلك إلى كونها أضعف في الإعجاز، وقد أجاب عن هذا التساؤل بقوله:

«حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام مشتملا على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة أو تتعلق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنن مثل «أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير».

على أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبي صلى الله عليه وسلم للقارئ أن يقرأ بالمرادف تيسيرا على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها عليها بسبب أن المتميزة هي البالغة غاية البلاغة وأن الأخرى توسعة

---

[1] _ ابن عاشور، المصدر السابق (62/1).

[2] _ محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، (62/1).

ورخصة ولا يعكر ذلك على كونها أيضا بالغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز»[1].

وهذا التفصيل الذي وجدناه عند ابن عاشور في مسألة الترجيح بين القراءات ذكره الإمام أبو حيان الأندلسي مجملا وذلك في معرض ردة على المفسرين الذين رجحوا بين القراءات المتواترة حيث قال: «وهذا الترجيح الذي يذكره المفسرون والنحويون بين القراءتين لا ينبغي لأن هذه القراءات كلها صحيحة ومروية ثابتة من رسول اللهﷺ ولكل منها وجه ظاهر حسن في العربية فلا يمكن فيها ترجيح قراءة على قراءة"[2].

وكحل تطبيقي لمسألة الترجيح بين القراءات المتواترة عند المفسرين يحاول الأمام ابن عاشور في كل مرة التوفيق بين معاني القراءات وذلك بإيجاد الخيط الرابط بينها وبين سياق معنى الآية، وأمثلة ذلك عديدة نذكر من بينها مثالين:

المثال الأول: في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 04]

ورد في هذه الآية قراءتان–ملك ومالك– وقد اختلف المفسرون في الترجيح بينهما على اعتبارات مختلفة، فرجح الإمام الطبري والزمخشري والقرطبي قراءة "ملك" من حيث المعنى ولأنها قراءة أهل الحرمين[3]، أما ابن عطية فقد رجح قراءة "مالك" لبلاغة معناها في نظره[4].

وقد ساوى الإمام ابن عاشور بين القراءتين في الصحة وقام بتوجيهها من خلال ربطهما بسياق الآية الذي يحمل معنى كلا القراءتين حيث قال:« وكلتاهما صحيحة ثابتة كما هو شأن القراءات المتواترة كما تقدم في المقدمة السادسة، وقد تصدى المفسرون والمحتجون للقراءات لبيان ما في كل من قراءة ملك–بدون ألف– وقراءة مالك– بالألف من خصوصيات بحسب قصر النظر على مفهوم كلمة ملك ومفهوم كلمة مالك، غفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين، فأما والكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا في إفادة أنه المتصرف في شؤون ذلك اليوم دون شبهة مشارك»[5].

---

[1] _ محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق (63/1).

[2] _ابو حيان الأندلسي، المصدر السابق، (265/2).

[3] _ينظر: –الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، (دار الهجرة للطباعة والنشر، 2001م)، (50/1).
–القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967م) (140/1–141). –الزمخشري، الكشاف، (بيروت: دار الكتاب العربي)، (115/1).

[4] _ابن عطية، المحرر الوجيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، ط1، (دار الكتب العلمية، 1993م)، (69/1).

[5] _محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، (175/1).

وقد أقر الإمام ابن الجزائري بإمكانية الجمع بين معاني القراءات المختلفة وذلك في قوله: "وقد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناه لا يخلوا من ثلاثة احوال: (أحدها) اختلاف اللفظ والمعنى واحد (الثاني) اختلافها جميعا مع جواز اجتماعها في شيء واحد.

-كما في قراءة ملك ومالك (الثالث اختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعها في شيء واحد بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد"[1].

المثال الثاني: في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: 125]

قرأ نافع وابن عامر "واتخذوا" بفتح الخاء على الخبر، وقرأ باقي القراء "واتخذوا" بكسر الخاء على الأمر[2].

والمعنى في القراءتين يختلف بين قراءة "واتخذوا" التي تدل على الأمر وهو وجوب اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وقراءة واتخذوا التي تحمل معنى الخبر عمن كان قبلنا من المؤمنين أنهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى[3]، وقد رجح الإمام الطبري قراءة و"اتخذوا"[4]، بالكسر محتجا بحديث عمر الذي قال فيه للنبي ﷺ:« هذا مقام أبينا إبراهيم عليه السلام، قال: نعم، قال عمر: أفلا تتخذه مصلى، فأنزل الله ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[5].

والإمام ابن عاشور هنا حاول التوفيق بين القراءتين بالجمع بينهما في المعنى حيث قال: «والقراءتان تقتضيان أن اتخاذ مقام ابراهيم مصلى كان من عهد إبراهيم عليه السلام ولم يكن الحجر الذي اعتلى عليه ابراهيم في البناء مخصوصا بصلاة عنده ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام ولما جاء الإسلام وبقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع او عام الفتح دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام ومعه عمر ابن الخطاب ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم.... وليستقيم الجمع بين معنى القراءتين واتخذوا بصيغة الماضي وبصيغة الأمر فإن صيغة الماضي لا تحتمل غير حكاية ما كان في زمن إبراهيم وصيغة الأمر تحتمل ذلك وتحتمل أن يراد بها معنى التشريع للمسلمين إعمالا للقرآن بكل ما تحتمله ألفاظه[6].

---

[1] _ابن الجزري، النشر، (1/49-50).

[2] _ابن مجاهد، كتاب السبعة (ص129).

[3] _مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع، ت: عبد الرحيم الطرهوني (القاهرة: دار الحديث، 2007م)، (1/314).

[4] _ الطبري، المصدر السابق، (2/522).

[5] _أخرجه البخاري، باب: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، رقم: 4483، (6/20).

[6] _ابن عاشور، المصدر السابق، (1/711).

رابعا: موقف الإمام ابن عاشور من نقد القراءات المتواترة:

لقد كان للإمام ابن عاشور موقفا واضحا من مسألة رد بعض القراءات الصحيحة من قبل بعض المفسرين بحجة مخالفتها للوجوه الصحيحة في اللغة العربية حيث يقول: « وأما ما خالف الوجوه الصحيحة في العربية ففيه نظر قوي لأنا لا ثقة لنا في انحصار فصيح كلام العرب فيما صار إلى نحاه البصرة والكوفة، وبهذا نبطل كثيرا مما زيفه الزمخشري من القراءات المتواترة بعلة أنها جرت على وجوه ضعيفة في العربية لاسيما ما كان منه في قراءة مشهورة"[1].

فمخالفة القراءة الصحيحة لبعض أوجه اللغة العربية ليس مسوغا لرد القراءة عند ابن عاشور وهو بذلك يوافق أئمة القراءة الذين لا يشترطون أن توافق القراءة أفصح أوجه اللغة حيث يقول ابن الجزري أنّ كل قراءة وافقة العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولوا احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها.... وقولنا في الضابط ولو بوجه نريد وجها من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح"، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارها بل أجمع الأئمة المقتدى بهم على قبولها"[2].

وهنا أشار الإمام ابن عاشور إلى السبب الحقيقي لنقد القراءات المتواترة عند بعض المفسرين كالإمام الزمخشري فقال: «وقد أفرط الزمخشري في توهين بعض القراءات لمخالفتها لما اصطلح عليه النحاة وذلك من إعراضه على معرفة الأسانيد»[3].

فعدم إحاطة المفسر بأسانيد القراءات المتواترة يعد من أهم أسباب تضعيفه لها.

وقد حاول الإمام ابن عاشور الدفاع عن القراءات المتواترة التي تعرضت للنقد من طرف بعض المفسرين بتوجيهه لها لغويا ومعنويا ونضرب لذلك مثالين:

المثال الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: 01]

لقد تعرضت قراءة "الأرحام" بالكسر وهي قراءة الإمام حمزة لكثير من النقد من قبل بعض

---

[1] _ابن عاشور، المصدر السابق، (61/1).

[2] _ابن الجزري، النشر (9/1-10).

[3] _ابن عاشور، المصدر السابق، (53/1).

اللغويين والمفسرين كالإمام الطبري، وابن عطية والزمخشري وذلك من ناحيتين:

أولا: الناحية اللغوية وذلك أنها في نظرهم فيها عطف للاسم الظاهر وهو "الأرحام" على الضمير المجرور "به" من دون إعادة الجار وهو "بالأرحام" وهو مخالف للقاعدة اللغوية وللفصيح من الكلام عند العرب[1].

فدافع الإمام ابن عاشور عن القراءة من هذه الناحية بالاستناد إلى قول ابن مالك وهو من علماء اللغة الذي أجاز العطف على المجرور بدون إعادة الجار وذكر أن العربية ليست منحصرة فيما يعلمه اللغويين الذين ردوا هذه القراءة أمثال المبرد[2].

ثانيا: الناحية المعنوية وذلك أن ذكر الأرحام فيما يتساءل به لامعنى له في الحض على تقوى الله وكذلك أنه ورد في الأخبار عدم جواز القسم بالرحم، وهو ما تحمله معنى قراءة حمزة[3]، ووجه الإمام التي عاشور هذه القراءة من حيث المعنى أن قراءة الإمام حمزة توافق سياق الآيات بعدها التي تتكلم عن الأرحام من اليتامى وغيرهم فيكون معنى الآية تعريضا بعوائد الجاهلية الذين يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة ثم يهملونها ولا يصلونها ويعتدون على الأيتام من إخوانهم وابناء أعمامهم فناقضت أفعالهم أقوالهم، فيتم بقراءة حمزة معنى الآية[4]. ويظهر هنا دور السياق في الاحتجاج لقراءة الإمام حمزة والدفاع عنها.

المثال الثاني: في قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ** ﴾ [الأنعام: 137]

قرأ الامام ابن عامر هذه الآية بضم الزاي من "زُين" وفعل قتل على أنه نائب فاعل ونصب "أولادهم" على المفعولية، وجر "شركائهم" وهو مضاف إلى "قتل" وقد اعترض بعض اللغويين والمفسرين على هذا الفصل الذي وقع بين المضاف "قتل" والمضاف إليه" شركائهم" بالمفعول وهو "أولادهم" ذلك أنّ العرب لا تفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف ولا يكون ذلك إلا في ضورة الشعر [5].

---

[1] _ينظر: الطبري، المصدر السابق، (346/6).الزمخشري، المصدر السابق، (462/1).

[2] _ابن عاشور، المصدر السابق، (218/4).

[3] _ابن عطية، المصدر السابق، (4/2-5).

[4] _ابن عاشور، المصدر السابق، (218/4).

[5] _ينظر: الطبري، المصدر (577/9).

-ابن عطية: المصدر السابق، (349/2).

فقراءة ابن عامر انتقدت من الجانب اللغوي لعدم موافقتها للقاعدة اللغوية المذكورة آنفا.

وعلل الزمخشري مخالفة ابن عامر للقاعدة بكونه اعتمد على رسم المصحف في تلقيه للقراءة فقد رسمت بالياء في بعض المصاحف كما ذكر الزمخشري [1].

وقد دافع الإمام ابن عاشور عن القراءة من حيث رسم المصحف وذلك بعكس ما ذكره الإمام الزمخشري فالقراءة لا تؤخذ من رسم المصحف وإنما تؤخذ بالتلقي والمشافهة ذلك أنّ الذين رسموا تلك الكلمة راعوا قراءة "شركائهم" بالكسر وهم من أهل الفصاحة والتشبث في سند قراءات القرآن، وقد كتبت كذلك في المصحف العثماني الذي ببلاد الشام.

وعن توجيه القراءة لغويا ذكر ابن عاشور مانصه : «وليس في الآية مما يخالف متعارف الاستعمال إلاّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول والخطب فيه سهل، لأنّ المفعول ليس أجنبيا عن المضاف والمضاف إليه... ومدونات النحو ما قصد بها إلا ضبط قواعد العربية الغالبة ليجري عليها الناشئون في اللغة العربية وليست حاصرة لاستعمال فصحاء العرب والقراء حجة على النحاة دون العكس»[2].

كما وجّه الإمام ابن عاشور القراءة معنويا وبلاغيا فقال: «والمعنى على هذه القراءة أن مزيّنا زين لكثير من المشتركين أن يقتل شركاؤهم أولادهم، فإسناد القتل إلى الشركاء على طريقة المجاز العقلي إما لأن الشركاء سبب القتل، إذا كان القتل قربانا للأصنام، وإما لأن الذين شرعوا لهم القتل هم القائمون بديانة الشرك مثل عمرو بن يحي ومن بعده»[3].

وتميز أسلوب الإمام ابن عاشور في دفاعه عن القراءات بالهدوء والحكمة ومن المفسرين الذين تصدّوا للدفاع عن قراءة ابن عامر كالإمام أبي حيان الأندلسي الذي كان له انتقاد لاذع لمن تعرض لقراءة ابن عامر وخصوصا الإمام الزمخشري الذي قال عنه: «وأعجب لعجميّ ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتابه شرقا وغربا».

واكتفى الإمام أبو حيان هنا بتوجيه القراءة، لغويا ولذلك نلاحظ أن أسلوب الإمام ابن عاشور في دفاعه عن القراءة كان أسلوبا هادئا ومدعما بالتوجيهات اللغوية والمعنوية للقراءة[4].

---

[1] _الزمخشري، المصدر السابق، (54/2).

[2] _ابن عاشور، المصدر السابق، (103/8).

[3] _ابن عاشور، المصدر نفسه، (103/8).

[4] _أبو حيان، البحر المحيط، (232/4).

الخاتمة:

توصلت في هذا البحث إلى النتائج التالية:

-أنّ تفسير الإمام ابن عاشور يعد من التفاسير الحديثة التي أحيت موضوع توجيه القراءات من خلال التفسير وتوسعت فيه، وهذا يدل على أهمية القراءات في مجال التفسير، وعلى تمكّن الإمام وإحاطته بهذا العلم الجليل.

-لقد تمكن الامام ابن عاشور من ابراز الاعجاز البلاغي للقراءات القرآنية من خلال توجيهه لها في تفسيره وهذا يدخل في اتجاهه التفسيري الذي يعتمد على البلاغة.

-أنّ معالجة الامام ابن عاشور لمسألة الترجيح من القراءات المتواترة يظهر من زاويتين، الأولى من الناحية النظرية حيث أصّل للمسألة وبين سببها وآثارها، ومن الناحية التطبيقية التي حاول فيها التوفيق بين معاني القراءات المختلفة بربطها بسياق الآيات وذلك أثناء توجيهه لها لغلق باب الترجيح بينها.

-يعتبر الإمام ابن عاشور من بين المفسرين الذين دافعوا عن القراءات المتواترة ضد الطاعنين فيها من لغويين ومفسرين وذلك بأسلوب علمي دقيق يتمثل في عملية التوجيه اللغوي والمعنوي للقراءة.

-أنّ الامام ابن عاشور لا يكتف بعرض المسائل المتعلقة بتعامل المفسرين مع القراءات من دون تحليل ونقد، كما يقوم ببيان أسبابها ودوافعها الحقيقية وموقفه من كل ذلك، كما في مسألة الترجيح بين القراءات المتواترة ونقدها عند بعض المفسرين.

وأقترح في خاتمة البحث أن يتجه الدراسون لهذا التفسير في تحديد وتوضيح معالم التفسير وأسسه من الناحية النظرية والتطبيقية وخصوصا أن تفسير الامام يمثل أحد أعلام الفكر المعاصر.

-كما يعتبر علم توجيه القراءات أحد مجالات علم التفسير وقواعده التي ينبغي أن تدرس من نواحي شتى كالتوجيه اللغوي، والبلاغي، والنحوي، والفقهي، عند مختلف المفسرين.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

1. إياد خالد الطباع، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، (دار القلم: دمشق، 2005م).
2. ابن الجزري، النشر، ت: علي محمد الضباع، دار الفكر للطباعة والنشر.
3. ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1983م).
4. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (بيروت: المكتبة الثقافية 1973م) .
5. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ت: عبد الرزاق المهري، ط1، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002م).
6. خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، (دار العلم للملايين، 2002م).
7. الزرقاني، مناهل العرفان، (بيروت: دار الفكر، 1988م).
8. الزمخشري، الكشاف، (بيروت: دار الكتاب العربي).
9. السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ت: محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي.
10. صحيح البخاري، باب: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، رقم: 4483.
11. الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، (دار الهجرة للطباعة والنشر، 2001م).

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967م) .

12. ابن عطية، المحرر الوجيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، ط1، (دار الكتب العلمية، 1993م).
13. القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ت: عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، 1989م.
14. ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوف إلى علوم القرآن وعلم البيان، ط2، (لبنان، دار الكتب العلمية، 1408هـ-1988م).
15. ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، ت: جمال الدين محمد شرف، ط1، مصر: دار الصحابة للتراث، 1428هـ-2007م.
16. محمد الحبيب بن الخوجة، شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور (ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2004م).
17. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م).
18. محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة (الطبعة التونسية، 1932م).

19. محمد بن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ت: زكريا عميرات، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

20. مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع، ت: عبد الرحيم الطرهوني (القاهرة: دار الحديث، 2007م).